بسم الله الرحمن الرحيم

١. لَقَدْ وَجَدْتُ القُرْآنَ

«لِهَذا الكِتابِ فى نَفْسِى قِصَّةٌ. ولَقَدْ كانَ مِنْ حَقِّى أنْ أحْتَفِظَ بِهَذِهِ القِصَّةِ لِنَفْسِى ما ظَلَّ هَذا الكِتابُ خاطِراً فى ضَمِيرى، أمّا وقَدْ أخَذَ طَرِيقَهُ إلى المَطْبَعَةِ؛ فَإنَّ قِصَّتَهُ لَمْ تَعُدْ مِلكاً لِى وَلا خاصَّةً بِى.

لَقَدْ قَرَأتُ القُرْآنَ وأنا طِفْلٌ صَغِيرٌ، لا تَرْقَى مَدارِكِى إلى آفاقِ مَعانِيهِ ولا يُحِيطُ فَهْمِى بِجَلِيلِ أغْراضِهِ، ولَكِنَّنى كُنْتُ أجِدُ فى نَفْسِى مِنْهُ شَيْئاً.

لَقَدْ كانَ خَيالى السّاذِجُ الصَّغِيرُ يُجَسِّمُ لِى بَعْضَ الصُّوَرِ مِنْ خِلالِ تَعْبِيرِ القُرْآنِ، وإنَّها لَصُوَرٌ ساذِجَةٌ، ولَكِنَّها كانَتْ تُشَوِّقُ نَفْسِى وتُلِذُّ حِسِّى فَأظَلُّ فَتْرَةً غَيْرَ قَصِيرَةٍ أتَمَلّاها وأنا بِها فَرِحٌ ولَها نَشِيطٌ.

مِنَ الصُّوَرِ السّاذِجَةِ الَّتى كانَتْ تَرْتَسِمُ فى خَيالِى إذّاكَ صُورَةٌ كانَتْ تَتَمَثَّلُ لِى كُلَّما قَرَأتُ هَذِهِ الآيَةَ: (وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فانْ أصابَهُ خَيْرٌ اطْمانَّ بِهِ وَ إنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا و الآخِرَةَ).

وَلا يَضْحَكُ أحَدُ حِينَما أُطْلِعُهُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ فى خَيالى.

لَقَدْ كانَ يَشْخَصُ فى مُخَيِّلَتى رَجُلٌ قائِمٌ عَلَى حافَّةِ مَكانٍ مُرْتَفِعٍ: مِصْطَبَةٍ ـ فَقَدْ كُنْتُ فى القَرْيَةِ ـ أوْ قِمَّةِ تَلٍّ ضَيِّقَةٍ ـ فَقَدْ رَأيْتُ التَّلَّ المُجاوِرَ لِلوادِى ـ وهُوَ قائِمٌ يُصَلِّى، ولَكِنَّهُ لا يَمْلِكُ مَوْقِفَهُ، فَهُوَ يَتَأرْجَحُ فى كُلِّ حَرَكَةٍ، ويَهِمُ بِالسُّقُوطِ وأنا بِإزائِهِ، أتَتَبَّعُ حَرَكاتِهِ فى لَذَّةٍ وشَغَفٍ عَجِيبَيْنِ!

ومِنْ تِلكَ الصُّوَرِ السّاذِجَةِ صُورَةٌ كانَتْ تَتَمَثَّلُ لِى كُلَّما قَرَأتُ هَذِهِ الآيَةَ: (واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الغاوِينَ * وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلَكِنَّهُ أخْلَدَ إلَى الأرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إنْ تَحْمِل عَلَيْهِ يَلهَثْ أوْ تَتْرُكْهُ يَلهَثْ).

لَمْ أكُنْ أُدْرِكُ مِنْ مَعانِى هَذِهِ الآيَةِ شَيْئاً وَلا مِنْ مَرامِيها، ولَكِنَّ صُورَةً كانَتْ تَشْخَصُ فى مُخَيِّلَتى، صُورَةُ رَجُلٍ فاغِرِ الفَمِ، مُتَدَلِّى اللِّسانِ، يَلهَثُ ويَلهَثُ فى غَيْرِ انْقِطاعٍ، وأنا بِإزائِهِ لا أُحَوِّلُ نَظَرِى عَنْهُ، وَلا أفْهَمُ لِمَ يَلهَثُ، وَلا أجْرُؤُ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْهُ!

وصُوَرٌ مِنْ هَذِهِ شَتَّى كانَتْ تَرْتَسِمُ لِخَيالِى الصَّغِيرِ وكُنْتُ أتَلَذُّ التَّأمُّلَ فِيها، وأشْتاقُ قِراءَةَ القُرْآنَ مِنْ أجْلِها وأبْحَثُ عَنْها فى ثَناياهُ كُلَّما قَرَأتُ.

تِلكَ أيّامٌ ولَقَدْ مَضَتْ بِذِكْرَياتِها الحُلْوَةِ، وبِخَيالاتِها السّاذِجَةِ، ثُمَّ تَلَتْها أيّامٌ، ودَخَلْتُ المَعاهِدَ العِلمِيَّةَ، فَقَرَأتُ تَفْسِيرَ القُرْآنِ فى كُتُبِ التَّفْسِيرِ، وسَمِعْتُ تَفْسِيرَهُ مِنَ الأساتِذَةِ، ولَكِنَّنى لَمْ أجِدْ فِيما أقْرَأ أوْ أسْمَعُ ذَلِكَ القُرْآنَ اللَّذِيذَ الجَمِيلَ الَّذِى كُنْتُ أجِدُهُ فى الطُّفُولَةِ والصِّبا.

وا أسَفاه! لَقَدْ طُمِسَتْ كُلُّ مَعالِمِ الجَمالِ فِيهِ وخَلَا مِنَ اللَّذَّةِ والتَّشْوِيقِ، تُرَى هُما قُرْآنانِ؟ قُرْآنُ الطُّفُولَةِ العَذْبُ المُيَسَّرُ المُشَوِّقُ وقُرْآنُ الشَّبابِ العَسْرُ المُعَقَّدُ المُمَزَّقُ؟ أمْ تِلكَ جِنايَةُ الطَّرِيقَةِ المُتَّبَعَةِ فى التَّفْسِيرِ؟

وعُدْتُ إلى القُرْآنِ أقْرَؤُهُ فى المُصْحَفِ لا فى كُتُبِ التَّفْسِيرِ، وعُدْتُ أجِدُ قُرْآنِى الجَمِيلَ الحَبِيبَ وأجِدُ صُوَرِى المُشَوِّقَةَ اللَّذِيذَةَ، إنَّها لَيْسَتْ فى سَذاجَتِها الَّتِى كانَتْ هُناكَ، لَقَدْ تَغَيَّرَ فَهْمِى لَها، فَصِرْتُ الآنَ أجِدُ مَرامِيَها وأغْراضَها، وأعْرِفُ أنَّها مَثَلٌ يُضْرَبُ، لا حادِثٌ يَقَعُ، ولَكِنَّ سِحْرَها ما يَزالُ وجاذِبِيَّتَها ما تَزالُ، الحَمْدُ لِلّهِ، لَقَدْ وَجَدْتُ القُرْآنَ».

٢. السَّيِّدَةُ خديجةُ (سلام الله عليها)

لَمَّا رَأى نساؤها منها ذلک [الْحُبَّ] أنْكَرْنَهُ عليها أشدَّ الإنكارِ ورَدَدْنَها عنهُ أشدَّ الرَّدِّ وصَوَّرْنَ لَها فقرَ الفتى وبؤسَهُ وما هى فيه من ثَرْوَةٍ ونعيمٍ وذَكَرْنَ لها تَنافُسَ الأشرافَ والسّادةِ فيها وحِرْصَهُمْ جميعاً على أن يَبْلُغُوا منها هذه الْمنزلةَ ... فَأحَسَّتْ خديجةُ أنّ نساءَها لمْ يَفْهَمْنَ عنها شيئاً وأنّهنّ لن يَفْهَمْنَ عنها شيئاً وَرَدَّتْ سِرَّهَا الْعزيزَ إلى مكانِهِ الأمينِ مِنْ نفسِها الطّاهرةِ وقلبِهَا الْكريمِ وَانْتَظَرَتْ حتّى تَهَيَّأتِ العيرُ فى عامٍ من الأعوامِ لِلرّحْلَةِ فى التّجارةِ إلى بلادِ الرّومِ وجَعَلَتْ خديجةُ تُهيّئُ تجارَتَها وجعل النّاسُ من فقراءِ قريشٍ يَعْرِضُونَ أنفسَهم عليها لِيَرْحَلوا فى تجارتِها إلى الشامِ كما تَعَوَّدوا أن يفعلوا من قبلُ ولكنّ خديجةَ لم تَسْمَعْ لأحدٍ منهم ... وإنّما أُلْقِيَ فى نفسِها ـ دونَ أن تَعْرِفَ كيفَ أُلْقِيَ فى نفسها ـ أنّ محمّداً [صلى الله عليه وآله] سَيَكُونُ هذه المَرّةَ صاحبَ تجارتِها إلى الشّامِ فلا تَسْألَ نساءَها عن شيءٍ ولا تُحَدِّثَ نساءَها فى شيءٍ وإنّما تُرْسِلُ إلى الشّيخ [أبىطالبٍ] دسيساً يَعْرِضُ عليه الأمرَ ويُهَوِّنُ عليه ما كان يَستَعصِبُ منه ويُصَوِّرُ أنّ الفتى قد أصبَحَ رجلاً لا بأسَ عليه من مَشَقَّةِ السّفر ... وهو ... سَيَكُونُ فى طائفةٍ من قومِهِ يَحْمُونَ العيرَ بالعددِ والعدّةِ ...

وما كان أبوطالبٍ لِيَرْضى هذا العَرْضَ أو يَقْبَلَهُ لولا أن قد كانَ لله فى ذلکَ حكمةٌ ولولا أنَّ اللهَ قد أَلْقَى فى قلبِهِ الرّضا بهذا الْعَرْضِ ... فقد كان أبوطالبٍ شفيقاً على ابْنِ أخيهِ رفيقاً به ... فلمّا عَرَضَ عليه رسولُ خديجةَ ما عَرَضَ، هَمَّ أن يَرْفُضَ ولكنّ اللهَ ألقى فى نفسهِ القبولَ، فقالَ للرّسولِ: «سَأعْرِضُ هذا على ابْنِ أخى». ثمّ يَلْقَى ابنَ أخيهِ فَيَعْرِضُ عليهِ الأمرَ مُرَغِّباً له مُشَجِّعاً إيّاه».

وما كان الفتى فى حاجةٍ إلى ترغيبٍ أو تشجيعٍ؛ فإنّ الّذى قد ألقى فى نفسِ خديجةَ اختيارَهُ لِتِجارتِها هذا العامَ وألقى فى نفسِ أبىطالبٍ قبولَ هذا الاختيارِ حينَ عَرَضَهُ رسولُ خديجةَ عليهِ، قد ألقى فى نفسِ الفتى قبولَ هذا الاختيارِ حينَ تَحَدَّثَ إليهِ عمُّهُ فيهِ.

٣. جرجى زَيدان

«قَامَ زَيْدَانُ وَتُراثُنَا الأدَبِىُّ مُبَعْثَرٌ فى بُطُونِ الْكُتُبِ الْقَديمَةِ وقَد تَمَكَّنَ ... أنْ يُنَظِّمَ ذلكَ التُّراثَ وأنْ يُعَبِّدَ طَريقَ الْبَحْثِ الْعِلْمِىِّ فِيهِ، وَلَوْ أرَدْنَا أنْ نُعَدِّدَ آثَارَهُ العِلْمِيَّةَ لَضَاقَ بِنَا الْمَقَامُ؛ فَلْنُشِرْ إلى بَعْضِهَا وَإلَى عَلاقَتِهِ بِحَيَاتِنَا الْفِكْرِيَّةِ.

فَفِى كِتابَيْهِ الْعَظيمَيْنِ «تأريخ آداب اللُّغَةِ الْعَرَبيَّةِ» و«تأريخ التَّمَدُّنِ الإسلامىِّ» يَقُومُ زَيدانُ بِمُهِمَّةِ الرّائِدِ الْحكيمِ. كانَ تأريخُ الأدبِ الْعربىِّ قَبلَهُ وكَذَلِكَ تأريخُ الْحَضارَةِ الإسلاميَّةِ كَغابَةٍ كَثيرَةِ الأدْغالِ، لا يَعْرِفُ السّالِكُ فيها كَيفَ يَسيرُ، فَكانَ عَمَلُهُ الْخالِدُ أنْ يَرُودَ تِلكَ الْغابَةَ فَيَشُقَّ فيهَا الطُّرُقَ ويُسَهِّلَ الْمَسَالِكَ وَيُقِيمَ الْمَعالِمَ ويُحَوِّلَ تِلكَ الْمَجاهِلَ أرْضاً عامِرَةً يَجُوبُها مُحِبُّ الْبَحْثِ دُونَ نَصَبٍ.

وَلا يَعْرِفُ قِيمَةَ هَذَيْنِ الْكِتابَيْنِ وَالْجُهودَ الّتى بُذِلَتْ فى سَبيلِ إخْراجِهِما إلاّ الّذينَ يُعْنَوْنَ بِهذِهِ الدّراساتِ ويَعْرِفُونَ مَشَقَّةَ الْوُصولِ إلى الْمَصادِرِ الأوَّلِيَّةِ. نَعَم قَدْ أُخِذَتْ عَلَى زَيدانَ فيهِما مَآخِذُ ... لَكِنَّ ذلكَ لَمْ يُقَلِّلْ مِنْ قِيمَةِ عَمَلِهِ وتأثيرِهِ الْفِكرىِّ وسَيَبْقَى لِهَذا الرّائِدِ الْحَكيمِ أثرُهُ الخَالِدُ فى نُفُوسِ الباحِثِينَ الْمُنْصِفِينَ.

عَلَى أنَّ خِدْمَةَ زَيدانَ لَم تَقتصِرَ عَلَى أهْلِ الْبَحْثِ والتَّحقيقِ وطُلاّبِ التَّخَصُّصِ، بَلْ تَتَناوَلُ جُمْهُرَةَ الْمُثَقَّفِينَ مِنَ النّاشِئَةِ، وذلكَ بِما وَضَعَهُ مِن تِلكَ السِّلْسِلَةِ الرِّوائِيَّةِ التّأريخيَّةِ الّتى تُعَدُّ عَمَلاً أدَبِيّاً مُمْتازاً، فَهُوَ فيها يَجْعَلُ حَقائِقَ التّأريخِ أدَباً شائِقاً ولا أعْرِفُ سِلْسِلَةً أدَبِيَّةً كانَ لَها ما كانَ لِهَذِهِ مِنَ التَّأثِيرِ الصَّالِحِ فى نُفُوسِ الْجُمْهورِ؛ إذْ حَبَّبَتْ إلَيْهِم دِراسَةَ ماضِيهِم ومَعرِفَةَ أمْجادِهِمْ ودَفَعَتْهُمْ إلى التّأريخِ عَنْ طَرِيقِ الفَنِّ الخَلاّبِ.»

٤. الْقاهِرَة

«كانَ يَصِلُ إلى الْقاهِرَةِ فِى أوَّلِ العامِ الدِّراسِىِّ فَلا يَكادُ يَسْتَقِرُّ فِيها حَتَّى يَدْعُوَ آخِرَهُ مُتَشَدِّداً فِى الدُّعاءِ أوْ مُلِحّاً فِيهِ، واللهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ كَمْ كانَ يَسْعَدُ وَيَبْتَهِجُ حِينَ كانَتْ بَشائِرُ الصَّيْفِ تُقْبِلُ ... كانَ مَقْدَمُ الصَّيْفِ يَمْلأ صَدْرَهُ حُبُوراً وَبِشْراً؛ لأنَّهُ كانَ يُؤْذِنُ بِقُرْبِ الإجازَةِ والْعَوْدَةِ إلى الرِّيفِ ... ولَمْ يَكُنْ يُحِبُّ الإجازَةَ لِهَذا وَحْدَهُ ولَمْ يَكُنْ يُحِبُّها لأنَّهُ سَيَلْقَى فِيها أهْلَهُ وَلأنَّهُ سَيَنْعَمُ فِيها بِما كانَ يُمْتَنَعُ عَلَيْهِ فِى الْقاهِرَةِ مِنْ طَيِّباتِ الْحَياةِ وإنَّما يُحِبُّ الإجازَةَ لِهَذا كُلِّهِ ولِشَىْءٍ آخَرَ كانَ أعْظَمَ فى نَفْسِهِ خَطَراً وأبْعَدَ أثَراً مِنْ هَذا كُلِّهِ، فَقَدْ كانَتِ الإجازَةُ أنْفَعَ لِعَقْلِهِ وقَلْبِهِ مِنَ الْعامِ الدِّراسِىِّ كُلِّهِ.

كانَتِ الإجازَةُ تُمَكِّنُهُ مِنْ أنْ يَفْرُغَ لِنَفْسِهِ ـ وما أكْثَرَ ما كانَ يُفَكِّرُ! ـ ومِنْ أنْ يَخْلُوَ إلى إخْوَتِهِ فَيَقْرَأ ـ وما أكْثَرَ ما كانَ يَقْرَأ وَما أشَدَّ تَنَوُّعَهُ وأعْظَمَ فائِدَتَهُ!

كانَ شَبابُ الأسْرَةِ يَعُودُونَ مِنْ مَعاهِدِهِمْ ومَدارِسِهِمْ وَقَدْ مَلأوا حَقائِبَهُمْ بِتِلْكَ الكُتُبِ الّتى لا تَتَّصِلُ بِدِراسَتِهِمُ الْمُنَظَّمَةِ ولا يُتاحُ لَهُمْ أنْ يَقْرَؤُوها فى أثْناءِ الْعامِ وكانَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ ألْواناً؛ مِنْها الْجِدُّ ومِنْها الْهَزْلُ؛ مِنْها ما أُلِّفَ ومِنْها ما تُرْجِمَ؛ مِنْها الْقَدِيمُ ومِنْها الْجَدِيدُ ... وَرُبَّما ضاقَ [أبُوهُمْ مِنْ هَؤُلاءِ الشَّبابِ] وَلامَهُمْ ... حِينَ كانُوا يُقْبِلُونَ عَلَى الْقَصَصِ الشَّعْبِىِّ فَيَغْرَقُونَ فِى أُلْفِ لَيْلَةٍ ولَيْلَةٍ أوْ فِى قِصَصِ عَنْتَرَةَ ... ولَكِنَّهُمْ كانُوا يُقْبِلُونَ عَلَى

كُتُبِهِمْ هَذِهِ؛ رَضِيَتِ الأسْرَةُ أوْ سَخِطَتْ وكانُوا يَجِدونَ فِى هَذِهِ الْكُتُبِ مِنَ المَتاعِ واللَّذَّةِ أضْعافَ ما كـانُوا يَجِـدُونَ فى كُتُبِهِمُ الدِّراسِيَّةِ ...

وكانَ صاحِبُنا يُحِبُّ الإجازَةَ؛ لأنَّهُ كانَ يَفْرُغُ لِلتَّفْكِيرِ فى أصْدِقائِهِ مِنْ بَعِيدٍ فَيَكْتُبُ إلَيهِمْ ويَتَلَقَّى مِنْهُمُ الْكُتُبَ ويَجِدُ فِى نَفْسِهِ لِذَلِكَ نَشاطاً وبِهِ لَذَّةً لَمْ يَكُنْ يَجِدُها حِينَ يَلْقَى أصْدِقاءَهُ فِى الْقاهِرَةِ ويَتَحدَّثُ إلَيهِمْ مِنْ قَرِيبٍ.

ثُمَّ كانَ يُحِبُّ الإجازَةَ؛ لأنَّهُ كانَ يَلْقَى فِيها شَباباً آخَرِينَ غَيْرَ شَبابِ أسْرَتِهِ ...؛ مِنْهُمْ مَنْ كانَ فـى المَـدارِسِ الثّانَوِيَّةِ ومِنْهُمْ مَنْ كانَ فى المَدارِسِ العالِيَةِ قَدْ أقْبَلُوا مِثْلَهُ يَلْتَمِسُونَ الرّاحَةَ بَيْنَ أهْلِهِمْ فى الرِّيفِ وهُمْ يَجِدُونَ فى لِقائِهِ والتَّحَدُّثِ إلَيهِ مِنَ اللَّذَّةِ والمَتاعِ مِثْلَ ما يَجِدُ هُوَ فى لِقائِهِمْ والتَّحَدُّثِ إلَيهِمْ، فَكـانَ يَسْـأَلُهُمْ عَمّـا يَتَعَلَّمُـونَ ويَسْأَلُونَهُ عَمّا يَتَعَلَّمُ، وربَّما قَرَؤُوا عَلَيْهِ بَعْضَ كُتُبِهِمْ وربَّما قَرَأَ مَعَهُمْ شَيْئاً مِنَ الأدَبِ القَدِيمِ».